

ترجمة النص المقدس بين الرّفْض و القبول

التجيني بن عيسى

جامعة تلمسان

تمهيد :

ما يلاحظ على ترجمات القرآن إلى اللغة الفرنسية، تكرار النقول من الواحدة إلى الأخرى. وقد ينتابها أحيانا نقص في تأدية المعاني وضعف في تأليف التراكيب، مما جعل كثيرا من العلماء المسلمين يترددون بين موجز لمثل هذه الترجمات وبين رافض لها.

و اخترنا الحديث عن القرآن الكريم دون غيره من الكتب الدينية الأخرى كالتوراة والأنجيل لكونه - كما قال موريس بوكاي - نصّ الوحي المنزل على محمد من سيد الملائكة جبريل. وقد كتب في الحال، ثم حفظه المؤمنون عن ظهر قلب، وردّوه أثناء صلواتهم وبخاصة طيلة شهر رمضان(1).

1- المفهوم الاصطلاحي للترجمة :

يرى غليسون وكوست أنّ لفظة (traduction) أي ترجمة تعني تأدية أو تفسير علامات لغوية بواسطة علامات لغوية أخرى (2). وقد عرّفها النظريات البنيوية بأنها عبارة عن تأدية علامات لغوية طبيعية بواسطة علامات لغوية طبيعية أخرى (3). ومعنى الفعل "traduire أي ترجم" في معجم ديوبوا (Dubois Dictionnaire de linguistique : Larousse) أن يُلْفَظ في لغة أخرى تسمى "اللغة الهدف - langue cible" ما لُفِظَ في "اللغة المصدر - langue source" مع الاحتفاظ بالتكافؤات الدلالية والأسلوبية (4).

أمّا الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، فقد ذهب إلى أنّ مفهوم الترجمة في العرف - أي عرف التّخاطب العام، لا عرف طائفة خاصّة ولا أمة معيّنة، أي العرف

التجيني بن عيسى

الذي تواضع عليه الناس جميعا - هو هنا نقل الكلام بأنواعه المختلفة من لغة إلى أخرى.

2- الترجمة اللغوية :

وهي التي تعني بنقل النص أو البلاغ أو الخطاب إلخ ... من لغة إلى لغة أخرى. وتنقسم إلى قسمين أساسيين هما : الترجمة الحرفية والترجمة المعنوية.

أ - الترجمة الحرفية :

وهي التي تراعى فيها محاكاة الأصل في نظمه وترتيبه. فهي تشبه وضع المرادف مكان مرادفه، ومن أجل ذلك سميت كذلك بالترجمة اللفظية. وهو ما توحى به نظرية العلامة اللسانية عند سوسير في مرحلتها الأولى حيث أن الكلمات تمثل الأشياء في ذاتها وصفاتها. فيحصل من ذلك إجراء شبيه بعنونة عالم الأشياء والأفكار. وقد عدّ سوسير هذه الرؤية خاطئة لأن الكلمة من منظورها تقابل الشيء الذي تدلّ عليه، وترجمة الكلمة، من منطلق هذه الفكرة، هو الإتيان بالكلمة المرادفة لها في لغة أخرى لا غير.

ب - الترجمة المعنوية :

وهي التي لا تراعى فيها تلك المحاكاة ، أي محاكاة الأصل في نظمه وترتيبه، بل المهم فيها حسن تصوير المعاني والأغراض كاملة. وقد سميت تفسيرية أيضا لأن حسن تصوير المعاني والأغراض فيها جعلها تشبه التفسير وما هي بتفسير (5). وتذهب النظريات البنيوية إلى أن اللغة تمثل كلاً متكاملاً وأنها تقوم بتجزئة التجربة الانسانية بكيفية خاصة. فالمفاهيم التي تحتوي عليها تلك اللغة ليست مترابطة ومتطابقة. ومن أجل ذلك، لتسهيل الترجمة الحرفية ولو ببعض الاحتفاظ على النكافؤ المعنوية.

ترجمة النص المقدس بين الرفض والقبول

إن الانتقال من لغة إلى لغة أخرى (أي استبدال القواعد والأحكام) لا يتأتى إلا إذا كانت هذه اللغات متشاكلة، توجد بينها أحكام مشتركة ضمن بنياتها السطحية (6). ويفصل الشيخ الزرقاني الحديث حول هاتين الترجمتين، فيرى أن المترجم ترجمة حرفية يقصد إلى كل كلمة في الأصل فيفهمها، ثم يستبدل بها كلمة تساويها في اللغة الأخرى مع وضعها موضعها وإحلالها محلها، وإن أدى ذلك إلى خفاء المعنى المراد من الأصل، بسبب اختلاف اللغتين في موقع استعمال الكلام في المعاني المرادة ألفا واستحسانا.

أما المترجم ترجمة تفسيرية، فإنه يعتمد إلى المعنى الذي يدل عليه تركيب الأصل فيفهمه، ثم يصبّه في قالب يؤديه من اللغة الأخرى، موافقا لمراد صاحب الأصل، من غير أن يكلف نفسه عناء الوقوف عند كل مفرد ولا استبدال غيره به في موضعه (7).

إن العمل الذي ينبغي أن يقوم به المترجم ترجمة لفظية هو الإتيان بكلام من لغة الترجمة، يدل على طلب الإخبار عن هذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله ويعبدون معها الملائكة ويزعمون أن الملائكة بنات الله مع مراعاة نظام الجمل ونظمه وترتيب ألفاظه بأن يؤتى بأداة الاستفهام ثم بالفعل المستفهم به الدال على معنى رؤية القلب ثم بالمفعول الثاني المحذوف والمقدر بـ (أفرايتم بنات الله وأناده ؟). ثم يبين بأن (الأخرى) هي صفة للعزى، وإنما آخرها رعاية للفواصل، وهي صفة ذم للآت والعزى ومناة التي ثلاثة اللتين قبلهما. فالأخرى على هذا من التأخر في الرتبة لأن الاستعمال العربي أن تطلق (الأخرى) على الثانية وقد وصفت الثالثة بالأخرى (8).

وقد يستنكر المترجم لهم هذا المقام الذي صيغ فيه هذا الاستفهام. ومن المؤكد أن اللغة - أي لغه - عاجزة عن الإتيان بنسخة طبق الأصل لهذه الآية الكريمة.

3- ترجمة النص المقدس :

ما من شك أن مسألة ترجمة النص المقدس (ونموذجه الأولى عندنا هو نص

التجيني بن عيسى

القرآن الكريم) مسألة مهمة وموضوع خطير في وقت واحد. وأهميته تكمن في أن كثيرا من الشعوب والأقوام ممن لم يجيدوا العربية هم في حاجة ماسة إلى معرفة القرآن الكريم وتعلمه والاستئناس به ثم الاطلاع على أحكامه وأصوله وفروعه ومتشابهه ومحكمه. فلم يتوان علماؤهم عن ترجمته بلسانهم ليستفيدوا منها ويفيدوا أبناءهم. ولا ريب في صدق عملهم هذا وفي نيتهم الحسنة، ولا ريب أيضا في أن شعورهم الديني الفياض والخالص هو الذي حفزهم على القيام بهذه المهمة السامية. فنقلوا القرآن الكريم إلى لغات شعوبهم، نقلوه إلى الفارسية والتركية والهندية والأردية وإلى كل لغات العالم الإسلامي.

أما خطورة موضوع الترجمة، فذلك لأن كتاب الله العزيز الكريم ليس كمثله كتاب، وهو لفظ ومعنى. فلا يمكن اعتبار المعنى وحده قرآنا، بل هو بلفظه ومعناه قرآن عربي مبين. هذه هي الحقيقة المتعلقة بكتاب الله. فترجمة القرآن شيء، إذا كان ذلك ممكنا وما هو ممكن -في رأينا-، وترجمة معاني القرآن، أي ترجمة تفسير القرآن شيء آخر يرجى منه تفهيم الأجنبي فحوى القرآن وهذا من الأمور الواجبة علينا (9). ومن ذلك ما قام به علماء مسلمون من ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والإسبانية وغيرها. وهم كذلك يستحقون كل التقدير والاحترام على فعلهم الهادف إلى إيصال كتاب الله عز وجل إلى من لا يملك ناصية اللغة العربية. وفي خضم هذه الترجمات المختلفة، ولما كان القرآن الكريم وحيا من عند الله

بلفظه ومعناه، فهل يجوز ترجمة الوحي الإلهي بعبارات بشرية عادية؟.

لقد أثار هذا السؤال الأخير جدلا واسعا في الأوساط الفكرية والثقافية الإسلامية، واختلف العلماء في الإجابة عنه بين من أجاز هذه الترجمة وبين من رفضها رفضا قاطعا. فأما الذين أجازوها ورأوا أنها ضرورة ملحة لما تقدمه من معارف قرآنية لمن لا يعرف العربية في ألفاظها ومعانيها ولا يعرف القرآن في أساليبه وبلاغته، فقد ارتكزوا على حجج أهمها :

1 - إن انتشار الإسلام هو انتشار لدائرة القرآن، وكما يفهم هؤلاء المسلمون

ترجمة النص المقدس بين الرفض والقبول

الجدد من غير العرب هذا القرآن، صار لزاما على العلماء والمفكرين واللغويين أن يترجموه إلى لغات العالم أجمع. وبالفعل، فقد شغل موضوع نقل القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية حيزا كبيرا من تفكير الهيئات الدينية الإسلامية كما عالج مناقشته رجال الدين والفقهاء منذ أقدم العصور.

2 - إن القرآن ترجم في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

فقد أوردت كتب الحديث أثرا منقولاً عن سلمان الفارسي بلفظ هذا نصّه :
روي أنّ أهل فارس كتبوا إلى سلمان الفارسي أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية، فكتب لهم (بسم الله الرحمن الرحيم، بنام يزدان يحشابد)، فكانوا يقرأون ذلك في الصلاة حتّى لانت ألسنتهم، وبعد ما كتبه عرضه على النبي صلى الله عليه وسلم (10). وقد اعتمد على النص كثير ممّن ترجم القرآن، فكان عندهم ذريعة لجوازها.

ويردّ الشيخ أبو دقيقة على هذا الأثر المنقول عن ابن عباس بقوله : إنّ هذا الأثر لا يصلح التمسك به ولا الاحتجاج به على جواز ترجمة القرآن.

3- إنّ علماء الإسلام ترجموا القرآن الكريم إلى اللغات الأعجمية بدون أدنى تكبر، منذ أول الإسلام إلى القرن الماضي. ومن هؤلاء الصحفي أحمد أغايف الذي نشر مقالا مهماً في جريدة "جون تورك" أي تركيا الفتاة، ينصح فيه المفكرين بترجمة القرآن إلى التركية لأنّ القرآن أساس الدين والترجمة هي الطريقة الوحيدة لإيصال الإسلام إلى العامة. لكنّه لقي معارضة قويّة من شيخ الإسلام الذي أمر بعدم ترجمة القرآن الكريم إلى التركية (11).

4- إنّ النصارى هم الذين دسّوا الفكرة الموحية بعدم ترجمة القرآن إلى قلوب بعض المسلمين (12). فقد قال أحد المبشرين لأحد علماء الكلام الساذجين : القرآن معجزة حقاً، لا تتحمّل بلاغته الترجمة. فوثب هذا العالم الساذج لشدة السرور وقال : الفضل ما شهدت به الأعداء. وخطب وكتب : القرآن تصعب أو تستحيل ترجمته. وتبعه آخرون في الخطوة الثانية، قالوا : القرآن لا تجوز ترجمته (13).

التجيني بن عيسى

وتعتقد هذه الطائفة من الباحثين أنه ليس من المفيد الخوض مع الخائضين في نوع هذه الترجمة، هل هي ترجمة حرفية أم هي ترجمة المعاني ؟. تلك هي حجج من أجاز نقل القرآن الكريم إلى لغات أجنبية. وحين نمعن النظر في هذه الحجج، نشعر بغلبة روح الاطلاع والتفقه والإحاطة بعلوم القرآن من أبناء الإسلام، الذين لا يجيدون العربية.

أما من ذهب إلى منع هذه الترجمة - اللفظية والمعنوية على السواء - فقد استندوا في تبرير موقفهم هذا إلى ما يلي :

1- وقوع أغلاط فاحشة في الترجمات. ووجود هذه الأغلاط كان معوّلاً هداماً لبناء مجد الإسلام، ومحاولة سيئة لزلزلة الوحدة الدينية واللغوية والاجتماعية للأمة الإسلامية (14).

2- كثير من المترجمين كنوا للإسلام عداوة ظاهرة. ومنهم من حمل له حباً ولكنه جاهل به (وعدو عاقل خير من صديق جاهل).

ومن الذين حملوا للإسلام عداوة ساخرة، المستشرق ماكسيم رودينسون في كتابة (Mahomet). فقد أورد نقلاً لقوله تعالى (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) بلفظ فرنسي هذا نصّه :

- Pour les Hommes s'approche l'apurement des comptes ? eux, négligents, ils s'en détournent (15).

ثم يعلق على معنى الآية الكريمة بقوله :

- " لنسجل عبر هذا القول المصطلحات التجارية الذي يستعملها هذا الإله ". وهو قوله بلغته :

-Notons au passage les termes commerciaux dont se sert ce Dieu(16).

ويلاحظ على هذه الترجمة طابعها الحرفي الذي لا يتعدى محاولة الإتيان بمفردات من اللغة الهدف، مساوية للتي يتألف منها الأصل. وهو ما أظهر النقص الفادح

ترجمة النص المقدس بين الرفض والقبول

فيها فجعل التشابه يختلّ في وضع المرادف مكان مرادفه. فقد استعملت كلمة (hommes) في موضع (الناس) وهو نقل غير سليم لأنّ (hommes) تعني لفظياً (الرجال). ثمّ ترجمته لكلمة (حساب) بـ (compte) و(الغفلة) بـ (négligence) و(معرضون) بـ (se détourner). ثمّ نلاحظه يعلّق على معنى الآية الكريمة بأسلوب ساخر، بل حاقد. وهو ما يبدو جلياً من خلال استعماله لأداة الإشارة (ce) الدالة على التعبير التهكمي المفضل عند معظم هؤلاء المستشرقين.

3 - إنّ ترجمة القرآن بمعنى نقله من لغته العربية إلى لغة أخرى، لفظاً ومعنى، تستلزم المحال. وكلّ ما يستلزم المحال محال. والدليل على أنّها تستلزم المحال أنّه لا بدّ في تحقّقها من الوفاء بجميع معاني القرآن الأولى والثانوية وبجميع مقاصده الرئيسية الثلاثة... (17). يقول الأستاذ إبراهيم الجبالي عن المميّزات البلاغية للقرآن الكريم : إنّ نقل الخواص البلاغية العربية إلى ما يقابلها في اللغات الأخرى، على فرض العثور عليه كلّها، لا يستتبع الدّرجة البلاغية في تلك اللغة، والتّصرف باختيار الأساليب البلاغية المناسبة للغة الأخرى قد يحصل بلاغة، ولكنّها تنسب لصائع الترجمة، ومحال أن يصل إلى حدّ يعجز البشر. كيف وهذا الصوغ صوغه وهو من البشر؟ (18).

ومن الواضح أنّ هذه المعاني وتلك المقاصد تؤدّي عبر أسرار لغة القرآن، لا يعرفها إلاّ الراسخون في هذه اللغة. يقول الأستاذ شفيق جبيري، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق معلّقاً على ترجمة القرآن إلى الفرنسية لصاحبيه أحمد لعيش وابن داود: كثير من أساليبه لم يجر على الحقيقة وإنّما المراد به المجاز، وصور المجاز تختلف في الأمم، والمترجمون إنّما يترجمون ظواهر الكلام ويغفلون عن بواطنه (19).

ولنا مثال وجيه يمكن بتفصيله أن نكشف عن غفلة المترجمين عن باطن الكلام المقصود وانصرافهم إلى ظاهره. يقول تعالى :

"ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب

عظيم" (20)

التجيني بن عيسى

فقد ترجم المؤلفان ظاهر الكلام (21). غير أن نقل ظاهر الكلام لم تستأثر به ترجمة لعيش وابن داود فقط، وإنما تجلّى في معظم الترجمات الأخرى سواء عند المستشرقين أو عند بعض علماء الإسلام المترجمين.

فقد ترجم جاك بيرك هذه الآية كما يلي :

- Dieu leur a posé un sceau sur le cœur et sur l'ouïe, une taie sur les regards; ils vont à un chatiment terrible (22).

أي : لقد وضع الربّ ختماً على قلوبهم وودقة على أبصارهم، إنهم يذهبون نحو عقاب شديد.

وترجمتها دونيز ماسون :

- Dieu leur a mis un sceau sur leurs cœurs et sur leurs oreilles ; un voile est sur leurs yeux et un terrible chatiment les attend (23).

ومعناها أن الربّ وضع ختماً على قلوبهم وعلى آذانهم، ويوجد حجاب على أعينهم وعقوبة مرعبة تنتظرهم.

وترجمها مجمع الملك فهد :

- Allah a scellé leurs cœurs et leurs oreilles, et un voile épais leur couvre la vue, et pour eux, il y aura un grand châtement (24).

أي : إن الله ختم على قلوبهم وعلى آذانهم، وغطّى حجاب كثيف بصرهم ولهم عقوبة كبيرة.

وترجمها صدوق مازيغ :

- Dieu a scellé à jamais leur cœur et leur entendement, un voile épais leur couvre la vue; un châtement terrible les attend (25).

أي : إن الله ختم نهائياً على قلوبهم وعلى سمعهم، وحجاب كثيف يغطّي بصرهم وعقوبة شديدة تنتظرهم.

وترجمها نور الدين بن محمود :

- Dieu a fermé leur cœur et leur ouïe avec un sceau, sur leurs yeux, il a mis un voile et il leur réserve un châtement cruel (26).

ترجمة النص المقدس بين الرفض والقبول

أي : إن الرب أغلق قلبهم وسمعهم بختم، ووضع على أعينهم حجاباً، وخصّهم بعقوبة قاسية.

وترجمها الشيخ حمزة بوبكر :

- Dieu a scellé leur cœur et leur ouïe, leurs yeux sont voilés d'un bandeau, un immense châtiment leur est réservé (27).

ومعنى هذا النقل أن الرب ختم على قلبهم وعلى سمعهم، وعيونهم محجوبة بعصابة وخصوا بعقوبة جسيمة.

إن سياق هذه الترجمات تأسس حول الاستعمال المباشر لألفاظ وتراكيب يمكن حصرها في (Dieu) و (mettre un sceau) و (a scellé) و (a fermé avec un) و (sceau) و (oreille) و (ouïe) و (un voile épais) و (un voile) و (voilés d'un) و (bandeau) و (terrible châtiment) و (grand châtiment) و (cruel) و (immense châtiment).

أما الحديث عن لفظ الجلالة (الله)، فقد أثرناه في مناقشتنا لترجمة الأعلام. وأما ما يتعلق بالتراكيب الخاصة بترجمة لفظة (ختم) والتي تتوَع نقلها عند المترجمين عموماً وعند المستشرقين بوجه خاص، فإن لفظة (sceau) مشتقة من اللاتينية (sigillum) من المادة اللغوية (signum) أي العلامة والطابع. وتدلّ في الفرنسية على الختم الذي يوثق العقود والعهود. ومنه تفرّع الفعل (sceller) الذي يدلّ على رسم عقد بخاتم لإغلاقه وتوثيقه.

وإنه يطلق في الديانة المسيحية على الحلقة من ذهب أو فضة أو من أية حجارة نفيسة أخرى توضع في الأصبع. وقد كثر انتشار مثل هذه الحلقة عند الشعوب البدائية واليهود بوجه خاص والمسيحيين الأوائل إلى عهد الحواريين. وتستعمل في الغالب الأعمّ لختم العقود والرسائل والمعاهدات وما إلى ذلك.

التجيني بن عيسى

وتذهب إحدى الروايات المسيحية إلى أن الخاتم المصنوع من الحجر الكريم والموجود في "بيروز" (Pérouze) ما هو سوى الحلقة الزوجية التي مُنحت للعدراء مريم ليلة زفافها (28).

والحقيقة أن الفعل (sceller) والاسم (sceau) يستعملان في الغالب للأمور المادية كما لاحظنا بينما يتعين استعمال الفعل العربي (ختم) في سياق معنوي بحت، مما يجعلنا نظن أن الترجمات المختلفة لهذه الألفاظ لم تف بحقه لأنها اكتفت بوضع لفظة (sceau) أو (sceller) في تراكيب تنبئ بما تدل عليه لفظة الآية الكريمة.

إن لمعنى الختم في الآية الكريمة عند أهل التفسير وجوها متعددة، ولكن سياقها الدلالي يكشف عن أن المراد من الختم هو العلامة. وإذا انتهى الكافر من كفره إلى حالة يعلم الله تعالى أنه لا يؤمن، فإنه يعلم على قلبه علامة...

ونعتقد أن الوجدتين اللغويتين (sceller) و (sceau) لا تؤديان هذه المعاني ولا غيرها مما ورد في تفسير الآية الكريمة. ولن توضّح القرينة الكامنة في اختصاص هذه الأعضاء بالذكر أو توحياً بأن هذه الأعضاء إنما هي طرق العلم لأن القلب موضع العلم وطريق الوصول إليه السماع والرؤية. ولذلك قال البيضاوي في تفسير هذه الآية: ولا ختم ولا تغشية على الحقيقة، وإنما المراد بهما أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرّنهم على استحباب الكفر والمعاصي واستقباح الإيمان والطاعات بسبب غيهم وانهماكهم في التقليد وإعراضهم عن النظر الصحيح، فتجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيها الحق واسماعهم تعاق استماعه فتصير كأنها مستوثق منها بالختم إلى آخر ما جاء في هذا التفسير المأثور، قال: وسماه على الاستعارة ختماً وتغشية.

ويتساءل الدكتور محمد صالح البنداق عن الكيفية التي سيعرف بها الفرنسي - حين يقرأ ترجمة الآية - أن في هذا الكلام استعارة وأن الختم والتغشية لم يكونا على

ترجمة النص المقدس بين الرفض والقبول

الحقيقة، بل هما من المجاز، وإذا غاب عنه هذا الأمر، فكيف يدرك أسرار القرآن ؟ وإذا هو لم يدرك أسرار القرآن، فلست أدري كيف يكون نظره إلى الآيات وكيف تكون قيمتها في نفسه ؟ (29).

إننا نؤكد وبإلحاح شديد على أن ترجمان القرآن ينبغي أن يمتلك كفاءة علمية خاصة ومقدرة معرفية هائلة تتعلق بالتجارب العامة والمفصلة في القرآن الكريم، ذلك أن العمل الترجمي يقوم أساسا وبدءا بتفسير كلام الله عز وجل تفسيراً يراعى فيه المقاصد المعنوية كلها ويثبت مرامي وأهداف بواطنها، ثم ينتقل إلى الشطر الثاني من مهمته والتمثل في ترجمة هذا التفسير.

5 - ترجمة القرآن بهذا المعنى مثل للقرآن. وكلّ مثل للقرآن مستحيل. أما أنها مثل له فلأنها جمعت معانيه كلها ومقاصده كلها لم تترك شيئا، والجامع لمعنى القرآن ومقاصده مثل له أي مثل. وأما أن كلّ مثل للقرآن مستحيل، فلأن القرآن تحدّى العرب أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، فعجزوا عن المعارضة والمحاكاة... (30).

6 - إن محاولة هذه الترجمة تشجّع الناس على انصرافهم عن كتاب ربهم، مكتفين ببذل أو أبدال يزعمونها ترجمات. وإذا امتدّ الزمن بهذه الترجمات، فسيذهب عنها اسم الترجمة ويبقى اسم القرآن وحده علما عليها (31).

7 - إن الأمة أجمعت على عدم جواز رواية القرآن بالمعنى وأنت خبير بأن ترجمة القرآن بهذا المعنى العرفي تساوي روايته بالمعنى، فكلتا هما صيغة مستقلة وافية بجميع معاني الأصل ومقاصده. لا فرق بينهما إلا في القشرة اللفظية. فالرواية بالمعنى لغتها لغة الأصل، وهذه الترجمة لغتها غير لغة الأصل. وعلى هذا يقال : إذا كانت رواية لغة القرآن بالمعنى في كلام عربي ممنوعة إجماعا، فهذه الترجمة ممنوعة كذلك، قياسا على هذا المجمع عليه، بل هي أحقرى بالمنع للاختلاف بين لغتها ولغة الأصل (32).

8 - إن الناس جميعا، مسلمين وغير مسلمين، تواضعوا على أن الأعلام لا

التجيني بن عيسى

يمكن ترجمتها، سواء أكانت موضوعة لأشخاص من بني الإنسان، أم لأفراد من الحيوان، أم لبلاد وأقاليم، أم لكتب ومؤلفات.

تلك هي رؤية من يرفض نقل القرآن من لغته الأصلية إلى لغة أجنبية. والواضح أن حجج هؤلاء العلماء قائمة على تعليقات شرعية استخلصوها من سبر كنه الإسلام واستنتاج ما يقصد بالقرآن عند المسلمين ولغير المسلمين. كما يستشف من آرائهم هذه أن القرآن معجز لا يجوز ترجمته، وأن ترجمته بحرفيته مستحيلة لأنها تفقد الذكر الحكيم روعة النظم العربي وجماله وطلاوة رونقه وتأثيره في النفوس، كما أن المترجم يخضع لا محالة إلى تأول بعض الألفاظ لتأدية المعاني القرآنية.

ومهما يكن من أمر، فإن السؤال لا يزال مطروحا، بل إن المسألة في جوهرها زادت تعقيدا لوجود واقع يحتم إيصال الذكر الحكيم لأقوام وشعوب لا تتقن العربية ووضع لا تسمح فيه نخبة هائلة من العلماء والمشرعين بترجمة هذا الذكر الحكيم. فما هو السبيل إلى حل هذه المعضلة وما هو الرأي الأرجح الذي ينبغي اتباعه لإرضاء هؤلاء وأولئك؟ وهل يمكن التوفيق بين النظرتين حتى لا نسلب أولئك حقهم في التفقه بكتابهم المقدس ولا نظلم أنفسنا بإيقاف واجب التبليغ المفروض على كل عالم مسلم؟.

4- حقيقة الترجمة اللفظية والمعنوية :

لا بد أن نتأكد من أنه لا فرق بين الترجمة اللفظية والترجمة المعنوية من حيث الحقيقة، فكلتاها تعبير عن معنى كلام في لغة بكلام آخر في لغة أخرى مع الوفاء بجميع معاني الأصل ومقاصده. وما الفرق بينهما إلا شكلي وهو أن يحل كل مفرد في الترجمة الحرفية محلّ مقابله من الأصل، بخلاف التفسيرية... فلا يظنّ بعد هذا أن كلمة ترجمة تنصرف إلى الحرفية أكثر مما تنصرف إلى التفسيرية كما يظنّ بعض الناس، بل التفسيرية أثبت قدماء وأعرف وجوداء، وأقرب إلى الأذهان عند الإطّلاق لأنها هي الميسورة، وهي الواضحة وهي التي يتداولها المترجمون والقراء جميعا. أمّا الحرفية، فإنّها تكاد تكون نظرية بحتة، وذلك من تعسرها أو تعذرها، ومن غموضها وخفائها

ترجمة النص المقدس بين الرفض والقبول

أحياناً، ومن ندرة إقبال التراجم والقراء عليها... (33).
غير أننا لاحظنا خلال قراءتنا لترجمات كثيرات أن عوامل أخرى تجعل الترجمتين اللفظية والمعنوية متداخلتين، إلى حد يصعب التمييز بين هذه وتلك. وقد تبتعد هذه الترجمات عن الأصل فتتأى معانيها عن المعنى المقصود من الأصل. فقد نقلوا لفظة (اقرأ) في قوله تعالى (اقرأ باسم ربك) (34) إلى الفرنسية مرةً بـ (récite) ومرةً أخرى بـ (lis) وإلى الإنجليزية مرةً بـ (recite) ومرةً أخرى بـ (read). وظاهر تماماً الفرق بين الكلمتين. فـ (lis) تعني، اقرأ شيئاً جديداً تتعلمه وتعرفه، أما (récite)، فمعناها، استظهر ما تعرف. يقول الدكتور محمد صالح البنداق : وهذا الفرق بين التعبيرين يدل على مدى دقة عمل المترجم من المستشرقين عندما يتعمد استعمال (récite)، إذ نرى فيها بكل وضوح ما يعني أن القرآن معروف من النبي... (35).
وحوروا الأعلام المذكورة في القرآن الكريم، ومثال على ذلك ما بادر به

المستشرقون وكثير من علماء الإسلام الذين ترجموا القرآن الكريم، فنقلوا اسم الجلالة (الله) إلى اللفظ الفرنسي (Dieu)، على الرغم من اعتراف الأوائل بأن لفظ الجلالة (الله) خاصٌ بالله المسلمين. لقد عرّف المستشرق ماك دونالد (وهو أحد الحاقدين على الإسلام والمشككين في أصالة القرآن الكريم) : الله، الكائن الأعلى عند المسلمين (36).
ويلاحظ من جهة أخرى أن اللفظة الفرنسية (Dieu) تطلق عموماً في الاستعمال على "الكائن الأسمى، الخالق لكل شيء، ومخلص العالم (37). ولا شك أن العبارة الأخيرة من هذا التعريف ترتبط أشد الارتباط بما نسبوه إلى المسيح عليه السلام من صفة الألوهية والفعل الرباني. لقد عنونوا الأنجيل الأربعة (متى ومارقس ويوحنا ولوقا) كما يلي : كتاب العهد الجديد لربنا ومخلصنا يسوع المسيح (38).
وجاء في إنجيل لوقا، الإصحاح 25/32 :

التجيني بن عيسى

إن كلمة الله كلها تركّز الانتباه في يسوع المسيح بصفته الشخص الذي به سيجلب يهوه الله بركات الحياة الأبدية للجنس البشري.

ونعتقد أن المستشرقين الذين تعمّدوا ترجمة اسم الجلالة (الله) إلى (Dieu)، إنما أسسوا هذا النقل بنية ضرب البعد الدلالي للفظ. فقد ورد في كتاب "الحق الذي يقود إلى الحياة الأبدية" المطبوع في الولايات المتحدة الأمريكية والمنشور في خمسة ملايين نسخة بالإنجليزية سنة 1968 وبالعربية سنة 1969، (ص17)، ما يلي :

ولكي يميّز الإله الحقيقي نفسه عن الآلهة الباطلة العديدة، أعطى نفسه اسما شخصيا، وهذا الاسم يفرزه عن كل الآخرين. ولربّ سائل يقول : أليس اسمه الله ؟. كلا، لأن كلمة "الله" هي مجرد لقب، تماما كما أن كلمة "رئيس" و"ملك" و"قاض" هي أيضا لقب. وكلمة الله، الكتاب المقدس، تكشف لنا عن اسمه الشخصي، وهذا الاسم هو يهوه.

ويتبيّن من هذا القول أن رجال الدين أحدثوا تشويشا فيمن هو "الله". لقد نفوا أن يكون لفظ الجلالة هو الاسم الشخصي للإله الحقيقي، كما أنهم أصدروا فتوى قاطعة توجب عدم استعمال اسم "الله" لأنهم يعتقدون عدم معرفة لفظه الصحيح.(39).

ويستنتجون من هنا أن العبادة يجب أن توجّه إلى يهوه وحده وليس لـ (الله)، لأن هذه اللفظة الأخيرة صفة للأولى فحسب. والذي يشدّ النظر أن خطورة هذا الحديث لم تتفطن لها أذهان بعض علماء الإسلام الذين حاولوا ترجمة القرآن، فراحوا يحذون حذو هؤلاء المستشرقين في نقل لبعض ألفاظهم أو تقليد لتفسير عباراتهم وشرح تراكيبيهم.

وقد تفتّنت ترجمة مجمع الملك فهد للمفارقة الموجودة بين اللفظتين (الله) و(Dieu)، فاحتفظت بالاسم الذي ورد في الآية الكريمة، وهي مشكورة على ذلك لأننا نعتقد بأن لا وجود في اللغات العالمية للفظ مرادفة لاسم الجلالة (الله) وأن العربية - بكل موضوعية - هي اللغة الوحيدة التي استأثرت بهذه اللفظ.

ترجمة النص المقدس بين الرخص والقبول

قد يقول قائل : لقد استحبّ هؤلاء المترجمون نقل لفظة (الله) إلى لفظة (Dieu) دون أية خلفية سيّئة ولا نية مبيتة. وأنّ ما يريدون به من وراء استعمالهم للفظـة (Dieu) هو اسم الجلالة (الله) لا غير، وهذا مقبول منهم، مشفوع لهم فيه لو لم تكن هناك ترجمات قد سبقتهم ولم تقتصر على التحريف فقط، بل وعلى تحوير معاني الآيات الكريمة ممّا يقتضي تفسيره صفحات جديدة. ولذلك قلنا، إنّ القرآن لفظ ومعنى، فلا تعدّ ترجمته باللفظ قرآناً ولا ترجمته بالمعنى كذلك.

وإذا رجعنا إلى كلمة (Dieu) التي تقل إليها اسم الجلالة في أغلب الترجمات الفرنسية، لاحظنا بأنّ هذه اللفظة مقترنة في الآثار والمعالم المسيحية بلفظة أخرى هي (الأب)، أي (Dieu le Père)، وقد تفرّعت عنها عبارة (Dieu le Fils) وهو المسيح عندهم (تعالى الله عما يصفون).

ومن المعلوم أنّ المسيحيين الأوائل كانوا يجسّدون نشاط (Dieu) بإبراز يد (main) معزولة منبثقة من سحاب معتقدين بأنّ (Dieu) الذي لا يمكن تجسيده ولا رؤيته، يتجلّى للعباد عن طريق أفعاله، لذلك جسّدوا هذا النشاط الإلهي في لفظة (اليد)(40).

وإيماننا ممّا بأنّ (الله) عزّ وجلّ هو أحد وهو الصمد وهو خالق الكون والبشر وخالق كلّ شيء نعلمه ولا نعلمه، فإنّ لفظ الجلالة جرى في الدلالة على معناه مجرى الأعلام وكلّ ما ذكر في اشتقاقه وتصريفه وترجمته لا وجه له من الصحّة ولا دليل عليه.

ولم يحد تفكير المسيحيين عن هذا المرقف إلى يومنا هذا حيث تقرأ في الوثيقة التي حرّرها الكاردينال "بيا" سنة 1962، بصفته رئيساً للأمانة العامّة في (مؤسّسة) وحدة المسيحيين في الفاتيكان، بخصوص العلاقات الكاثوليكية-اليهودية والتي كانت تهدف إلى إزالة العداء التاريخي بين أتباع الديانتين، ما يلي :

التجيني بن عيسى

إن أوثق صلات الكنيسة بالشعب اليهودي "إنسانية" المسيح. إن الكنيسة لا تستطيع أن تنسى - ولا تريد أن تنسى - أن الله (هذا هو التعبير الوارد في هذه الوثيقة السرية إلى اليهود)، لما أصبح أخا للبشرية، (اختار) أن يكون يهوديا. وبتعبير آخر، إن مخلص العالم عاش ومات على أنه شخص من الشعب الذي أنعم الله عليه فاختره واعتنى به... (41).

كما غيروا اسم الرسول الأعظم، على عاداتهم، إلى اسم (Mahomet). ويبدو أن (Mahomet) هو تحريف لسانی لـ (محمد). وقد أبانت الدكتوراه نبهاني خريجة أن "سخرية القدر" جعلت معنى الاسم يتغير وفق نطقه بالكيفية الأولى أو الثانية. فذكرت أن (Mahomet) تلفظ بالنطق العربي (Mahommid) وتدلّ على الذي لم يفلح بحمد الله ولم يباركه بينما يدلّ اللفظ (Mouhammad) على الذي باركه وأنزل عليه حمده. وهذا المعنى الأخير هو المراد من اسم الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد جرى على هذا المجرى في تحريف اسم النبي الكريم جمع من الكتاب والباحثين والشعراء أمثال لافونتين (La Fontaine) وفكتور هيجو وفولتير. كما ذهب بعض العلماء الواعين بنوايا هؤلاء المستشرقين إلى أن كثيرا من الأوروبيين المسيحيين تعمّدوا هذا التحوير (42). وقد اعترف بعضهم بأن (Mahomet) تحريف لغوي فرنسي للعلم (43).

ونعتقد أن هذا التحريف ليس مجرد تحويل لغوي طرأ على اللسان الفرنسي الذي لا يقدر على نطق الحاء العربية لأن القضية ليست في إبدال صوت صامت بآخر، وإنما تكمن في بناء الاسم ذاته عن طريق استبدال حركات. ومعروف أن الاستبدال الحركي هو الذي تنفرع عنه 7 الصيغ المختلفة للمادة اللغوية وبالتالي تتنوع المعاني والدلالات بتنوع هذه الصيغ.

وإذا كنا قد أطلنا الحديث حول هذه المسألة، فلأننا نظنّ بأنّ هذا التحريف لم

ترجمة النص المقدس بين الرخص والقبول

ينتج في نظرنا من تغيير لساني، بل إنه تقليد سافر لنطق أسم الرسول عند الإسبان المسيحيين الذين كانوا ينطقونه (Mahomad). وكان متداولاً بوجه خاص عند الكتاب والشعراء في القرن الرابع عشر الميلادي حيث ذكر في قصيدة للشاعر الإسباني ألفون ألفاريز دي فيلا ساندينو (Alfon Alvarez de Villasandino) في سنة 1425م. وهي قصيدة محفوظة هي ومثيلات لها للشاعر نفسه في المكتبة الملكية بمادريد. كما ذكر العلم بهذه الصيغة أي (Mahomad) في شعر خوان هرنانديز دي إريديا (Juan Hernandez de Irédia)، وهو أحد فرسان الملكة إيزبيل (Isabelle)، ملكة غشتالة ورائدة الاسترداد الإسباني (43) (La reconquista). من أجل هذا كله، نعتقد أن ترجمة النص القرآني مستحيلة لما سبق تفصيله. ولكن ما نحبّه هو أن تكون ترجمة القرآن تفسيراً له بلغة أجنبية، لأن تفسير القرآن بلسان أعجمي لمن لا يحسن العربية، يجري في حكمه مجرى تفسيره بلسان عربي لمن يحسن العربية.

الهوامش :

- 1- التوراة والإنجيل والقرآن و العلم : مورييس بوكاي-بيروت-دار الكندي-ص106/107.
- 2- Dictionnaire de didactique des langues : dirigé par R. Galisson / D. Coste : Hachette 1976 - p. 556.
- 3- المرجع نفسه : ص 556.
- 4- Dictionnaire de linguistique - Larousse : 1973 - p. 490.
- 5 - مناهل العرفان في علوم القرآن : الأستاذ محمد عبد العظيم الزرقاني - دار إحياء الكتب العربية - 6/2.
- 6 - Dictionnaire de didactique des langues : p. 566.

التجيني بن عيسى

- 7- مناهل العرفان : 7/2-8.
- 8 - فتح الرحمان بكشف ما يلتبس في القرآن : الشيخ أبو يحيى زكريا الأنصاري - تحقيق محمد علي الصابوني - مكتبة دحلب - الجزائر - 1408 هـ - 1988م - ص 539 - 540.
- 9- المستشرقون وترجمة القرآن الكريم : الدكتور محمد صالح البنداق - بيروت - دار الآفاق الجديدة - 1400هـ-1980م - ط 1 - ص 49.
- 10- مناهل العرفان : 55/2.
- 11- المستشرقون وترجمة القرآن الكريم : ص 69 - 70.
- 12- معجم مصنفات القرآن الكريم : 11/2.
- 13- المستشرقون وترجمة القرآن الكريم : ص 71 - 72.
- 14- مناهل العرفان : 46/2.
- 15 - Mahomet : M. Rodinson - Ed. du Seuil - Paris 1961 - p. 150.
- 16- المرجع نفسه : ص 150.
- 17- مناهل العرفان : 43/2.
- 18- المستشرقون والقرآن الكريم : ص 69 - 70.
- 19- المرجع نفسه : ص 71.
- 20- سورة البقرة : آية 7.
- 21- المستشرقون وترجمة القرآن الكريم : ص 73.
- 22 - J. Berque : Traduction - p. 26
- 23 - D. Masson : Traduction - p. 5
- 24- مجمع الملك فهد : ترجمة - ص 3
- 25 - S Mazigh - Traduction - p. 11
- 26 - N. Benmahmoud : Traduction - p. 4
- 27 - H. Boubekeur : Traduction - p. 8
- 28 - Dictionnaire des antiquités chrétiennes : Paris - 1865 - p. 39
- 29- المستشرقون وترجمة القرآن الكريم : ص 67 - 68

ترجمة النص المقدس بين الرفض و القبول

- 30- مناهل العرفان : 46/2
- 31- المرجع نفسه : 45/2 وما بعدها
- 32- المرجع نفسه : 47/2
- 33- المرجع نفسه : 51/2
- 34- سورة العلق : آية 1.
- 35- المستشرقون وترجمة القرآن الكريم : ص 123.
- 36- دائرة المعارف الإسلامية : 1933م - 558/2.
- 37 - Le Petit Larousse : 2000 - p. 333
- 38- ينظر : الكتاب المقدس - جمعية الكتاب المقدس المتحدة - 1966م - ص 1359.
- 39- الحق الذي يؤدي إلى الحياة الأبدية : الولايات الأمريكية المتحدة -1969-ص17.
- 40 - Dictionnaire des antiquités chrétiennes : P. 207
- 41- التبشير والاستعمار : د. مصطفى خالدي ود. عمر فروخ - بيروت - صيدا - المكتبة العصرية - 1973 - ص164 - 265.
- 42 - Défense du prophète : Réplique à la tragédie « Mahomet » de Voltaire - Nahani Koribaa - p. 7
- 43- L'islam : René Kalisky - Marabout - 1980 - p. 46
- 44- Histoire des arabes d'Espagne sous la domination chrétienne : Albert de Circourt - Paris 1846 - 2/457